

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

[يوسف: 18]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لا يخلو كذب
من دليل على
بطلانه

لَمَّا كَانُوا عَالِمِينَ أَنَّ حِيلَهُمْ لَنْ تَنْطَلِي عَلَى الْآبِ ذِي الْفِرَاسَةِ
وَالْبَصِيرَةِ، وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَمْتَلِئَةً بِالشَّكِّ وَالرَّيْبَةِ؛ جَاءُوا بِقَمِيصِ
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلَطَّخًا بِدَمٍ كَذِبٍ؛ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَدْفَعُونَ كَافَّةَ
الشُّكُوكِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلِيَكُونَ دَلِيلًا مَرْتَبًا يُؤَيِّدُ زَعْمَهُمْ؛ فَكَانَ
الدَّلِيلُ الْكَاشِفَ لِكَذِبِهِمْ، الْفَاضِحَ لِمُؤَامَرَتِهِمْ^(١).

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿سَوَّلَتْ﴾: سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَمْرًا: زَيَّنَتْ لَهُ إِيَّاهُ، وَسَوَّلَ لَهُ
الشَّيْطَانُ أَمْرًا: أَغْوَاهُ بِهِ وَأَرَاهُ إِيَّاهُ^(٢). وَأَصْلُهُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِرْخَاءِ
فِي الشَّيْءِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حَاكِيًا قَوْلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. يَعْنِي: زَيَّنَتْ لَكُمْ، وَحَسَّنَتْ لَكُمْ، وَسَهَّلَتْ لَكُمْ
أَمْرًا غَيْرَ مَا تَصِفُونَ^(٤).

(2) ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: الصَّبْرُ: نَقِيضُ الْجَزَعِ، وَأَصْلُهُ حَبَسَ النَّفْسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/31، والخطيب الشربيني، السراج للنير: 2/95، والمرآة، تفسير الرازي: 12/122، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/310، والزحيلي، التفسير للنير: 12/227، والهريري، حقائق الروح والريحان: 13/340.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سول).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (سول).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سول).

عن الجزع وغيره⁽¹⁾. وكلُّ من حبس شيئاً فقد صبره⁽²⁾. والصَّبْر الجميل: الذي لا جزع فيه ولا شكوى⁽³⁾.

(3) ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾: العون: الظَّهير على الأمر، والمعاونة: المظاهرة⁽⁴⁾. ومعناه المحوري: "مدد زائد أو امتداد من قوَّة في باطن أو من خارج"⁽⁵⁾، وكلُّ شيء أعانك أو استعنت به فهو عون لك. كالصَّوم عون لك على العبادة. وتعاونوا، أي: أعان بعضهم بعضاً⁽⁶⁾. والاستعانة: طلب العون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]⁽⁷⁾.

(4) ﴿تَصِفُونَ﴾: الوصف: ذكر الشيء بحليته ونعته، والصِّفة: الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته⁽⁸⁾. وأصله من تحلية الشيء واتَّخَذَ الشيء هيئته التَّامَّة⁽⁹⁾. والوصف قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً، يقال: لسانه يصف الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: 116]. ومن هذا المعنى أيضاً قول الله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: 139]. أي: كذبهم، وكثر ذكر الوصف بمعنى الكذب، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. أي: تكذبون⁽¹⁰⁾.

❁ المعنى الإجمالي:

لا يزال البيان القرآني يكشف كذب ما ذهبوا إليه من دلائل كاذبة وأمور مختلقة؛ تبرئة لأنفسهم وصيانة لكرامتهم فيخبر أنهم جاؤوا أباهم بقميص ابنه يوسف ملطَّخاً بدم مفترى غير دمه؛ ليكون شاهداً لهم على صدقهم فكان دليلاً على كذبهم؛ إذ لم يكن

(1) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صبر).

(2) الأزهرى، تهذيب اللغة: (صبر).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/480، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/151، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/518.

(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، للجمال، والراغب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عون).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عون).

(6) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (عون).

(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عون).

(8) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وصف).

(10) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).

في كل كذب
ثغرة، ولكل
كاذب سقطة،
وللمؤمن البصير
فطنة

به تمزيق أو تخريق، ولذا قال يعقوب ﷺ مكذباً خبرهم: (بل زُيِّتَ لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في شأن يوسف ففعلتموه، فصبري على ما فعلتم جميل لا جزع فيه ولا شكوى، واللَّه أستعين على كفايتي شرَّ ما تكذبون)⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة الواو في: ﴿وَجَاءُوا﴾:

الواو عاطفة وجملة ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ معطوفة على ما قبلها⁽²⁾، والمعنى: وبعد أن ألقوا بيوسف ﷺ في الجبِّ، واحتفظوا بقميصه معهم، وضعوا على هذا القميص دماً مصطنعاً ليس من جسم يوسف ﷺ، وإنما من جسم شيء آخر⁽³⁾. وقيل: الواو واو الحال، والجملة بعدها في موضع النَّصب على الحال⁽⁴⁾.

سرُّ التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

سرُّ التعبير بالحرف ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾: والعدول عن قوله: (بقميصه ملطَّخاً بدم كذب) هو بيان أنَّ الدَّم الذي وضع فوق القميص ليس دم يوسف؛ فإنَّه إن كان دمه فسيكون من جسده، أي جاء من داخل قميصه لا من خارجه (فوقه)؛ فإنَّما أتى الإخوة بدم مكذوب فوق قميص أخيهم⁽⁵⁾.

وقيل: ﴿عَلَى﴾ ظرف لـ ﴿وَجَاءُوا﴾ مشعرٌ بتضمُّنه معنى (افتروا)⁽⁶⁾. ومعنى الاستعلاء فيه يفيد المشقَّة والصُّعوبة للحصول على الدَّم⁽⁷⁾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/321 - 322، وطنطاوي، الوسيط: 7/330.

(2) درويش، إعراب القرآن: 4/462.

(3) طنطاوي، الوسيط: 7/330.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

(5) الألوسي، روح المعاني: 6/392.

(6) القاسمي، محاسن التأويل: 6/160.

(7) الهلال، الثري الجامع: 5/323.

وضع بنو
يعقوب دم
يوسف المكذوب
فوق القميص
ليؤكدوا براءتهم
من قتله

كما أنَّه يصوِّر للقارئ والسَّامع أنَّه موضوع على ظاهره وضعًا متكلِّفًا، ولو كان من أثر افتراس الذُّنب له لكان القميص ممرَّقًا والدَّم متغلغلًا في كلِّ قطعة منه، ولهذا كلُّه لم يصدِّقهم⁽¹⁾.

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾:

قوله: ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ حال من ﴿يَدِمُ﴾ فقدَّم على صاحب الحال⁽²⁾؛ للاهتمام به، ذلك أنَّهم أرادوا أن يوجدوا عذرًا يعتذرون به لأبيهم؛ إذ رجعوا إليه بدون يوسف الذي أقسموا على رعايته؛ لذلك قدَّم شبه الجملة ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ للدِّلالة على هذا المعنى.

بلاغة الوصف بالمصدر في: ﴿يَدِمُ كَذِبٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿كَذِبٌ﴾ مصدرٌ وُصِفَ به الدَّم مبالغةً، أو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: مكذوب فيه، أو بمعنى: ذي كذب؛ أي: مُلابس لكذب⁽³⁾.

ووصف الدَّم بالكذب مبالغة؛ كأنَّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته، فكأنَّ مجيئهم من الكذب نفسه⁽⁴⁾. وسَمَّاهُ الله كَذِبًا؛ لأنَّ الذين جاؤوا بالقميص وهو فيه قد كذَّبوا، فقالوا ليعقوب عليه السلام: هو دم يوسف، ولم يكن دمه⁽⁵⁾. وكأنَّ الدَّم نفسه هو الذي كَذَب⁽⁶⁾.

معنى (الباء) في: ﴿يَدِمُ كَذِبٌ﴾:

قولهم: جاءَ بكذا؛ أي استحضره، ويختلف معناه بحسب اختلاف المجيء به⁽⁷⁾. ولَمَّا كانت ﴿يَدِمُ﴾ حالًا من ﴿قَمِيصِهِ﴾ والمعنى: ملتبسًا

لا يقوم الدَّم
شاهدًا أبدًا، فما
أيسر أن يحصل
الإنسان على
الدَّم الذي يريد

يحشد الكاذب
مخرِّق أدلته
ليداري بها عورة
كذبه

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.

(4) البروسوي، روح البيان: 4/226.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/35.

(6) الشَّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6889.

(7) الفيروزآبادي، البصائر: 2/413.

بَدَم كذب⁽¹⁾ كانت الباء للإلصاق والتوكيد⁽²⁾؛ فهم أحضروا الدَّم المكذوب وألصقوه بقميص يوسف ليُخَفُوا الحقيقة عن أبيهم. ولَمَّا كان الدَّم ملطخًا به القميص، وكانوا قد جاؤوا مصاحبين للقميص؛ فقد جاؤوا بالدم على القميص⁽³⁾.

سُرُّ الفصل في: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾:

جملة: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ لا محل لها؛ استثنائية تعليل لكلام مقدّر هو مقول القول. والتقدير: لم تصدّقوا في كلامكم، بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم... إلخ⁽⁴⁾.

قلوب الصّديقين
تقرع عواقب
الأُمور، وتستبين
ببصيرتها
المستور

فآثر الفصل دون الوصل لأجل أسلوب المحاورات المتصلة الخيط؛ فلا حاجة للوصل هنا. فلمّا قالوا قَوْلَتَهُمْ من الكذب أجابهم يعقوب ﷺ بهذا القول.

كما أنّ في الكلام حذفًا. يمكن تقديره: لم يأكله الذئب بل سَوَّلَتْ⁽⁵⁾. فالاستئناف مبنيّ على سؤال فكأنّه قيل: ما قال يعقوب؟

هل صدّقهم فيما قالوا أم لا؟ فقيل: قال: لم يكن ذلك ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾⁽⁶⁾.

فائدة حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾:

﴿بَلْ﴾ حرف يفيد الإعراض عمّا قبله، وإثبات ما بعده على سبيل التّدارك⁽⁷⁾؛ فاستخدامه هنا فيه إبطال لدعواهم أنّ الذئب أكله؛ وإشارة إلى كذبهم فيما يدّعون⁽⁸⁾. فقلوه: ﴿بَلْ﴾ ردّ لقولهم: ﴿أَكَلَهُ

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/276.

(2) الهلال، الثري الجامع: 5/323.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

(4) محمود صافي، الجدول: 6/396.

(5) الألوسي، روح المعاني: 6/391.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.

(7) البروسوي، روح البيان: 4/227.

(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

الْيَتَّبِعْ، كأنه قال: ليس الأمر كما تزعمون، بل سَوَّلْتُ لكم أنفسكم
الأمارة بالسوء أَمْرًا إِمْرًا، وكيدًا نُكْرًا؛ أي: هذا أَمْرُكُمْ. وأَمَّا أَمْرِي
معكم ومع رَبِّي **﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾** (1).

إيثار الفعل **﴿سَوَّلْتُ﴾**:

التَّسْوِيلُ: التَّسْهِيلُ وتزوين النَّفْسِ ما تحرص على حصوله (2).
وتصوير القبيح منه بصورة الحسن (3). وهو دون غيره من الألفاظ
مناسبٌ لفعل إخوة يوسف بيوسف ﷺ.

فالتَّسْوِيلُ: تقدير معنى في النَّفْسِ على الطَّمَعِ في تمامه (4)، وكأنَّ
التَّسْوِيلَ تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أَمْنِيَّتُهُ التي يطلبها فتزوينٌ لطالبها
الباطل وغيره. وأصله مهموز غير أنَّ العرب استثقلوا فيه الهمز (5).

ويجوز أن يكون **﴿سَوَّلْتُ﴾** أي: سهَّلت من السَّوْل وهو الاسترخاء،
أي: سهَّلت لكم أنفسكم أَمْرًا عظيمًا ارتكبتموه من يوسف، وهَوْنَتُهُ
في أعينكم (6)، وزَيَّنْتُهُ في قلوبكم فطَوَّعْتُهُ لكم حتى اقترفتموه (7).

فلأجل كلِّ هذه المعاني السَّابِقَةِ أَوْثَرَ التَّعْبِيرَ بالتَّسْوِيلِ دون التَّطْوِيعِ،
وأيضًا لأجل أنَّ التَّطْوِيعَ أَشَدُّ من التَّسْوِيلِ؛ إذ يَتَطَلَّبُ جهدًا أكبر (8).

دلالة التعبير بصيغة الماضي **﴿سَوَّلْتُ﴾**:

عبر بصيغة الماضي لما فيه من دلالة على تمام الحدث؛ والمعنى
أنَّه قد تحقَّق تسويل أنفسهم لهم بهذا الأمر، وتحقَّق تزيينه في
قلوبهم. وفيه دلالة على التَّوَكُّيد غير خافية.

مهما دبَّر
المدبِّرون فلا
بدَّ أن يتركوا
خلفهم علامات
وَأَنَّا تَتَبَت أَنَّهُمْ
هم الفاعلون

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/49، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

(3) الراغب، المفردات: (سول).

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/48.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/430.

(6) الزمخشري، الكشاف: 2/451.

(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/221.

(8) الهلال، الثري الجامع: 5/323.

تقوم القرائن
مقام الأدلة إن
غابت الأدلة

التنكير لبيان
عظم الأمر
وشدته، وبلوغه
أقصى قوته

البلاء العظيم
يقابله الصبر
الجميل

تقديم الجار والمجرور في: ﴿لَكُمْ﴾:

تقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المسند إليه فقال: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾؛ أي: لكم أنتم وليس لي، وكأنَّ كلَّ كذبهم لتبرئة أنفسهم أمام أبيهم ﷺ لم يخدعه، وهو إشارة منه إلى أنه ﷺ غير مصدِّق لما قالوه كُلُّه.

فائدة تنكير ﴿أَمْرًا﴾:

تنكير ﴿أَمْرًا﴾ للتَّهْوِيل، فالإبهام الذي في كلمة ﴿أَمْرًا﴾ يحتمل عدَّة أشياء ممَّا يمكن أن يؤذوا به يوسف ﷺ: من قتل، أو بيع، أو تغريب؛ لأنَّه لم يعلم تعيين ما فعلوه به⁽¹⁾. فهو أمر منكر، لا يوصف ولا يُعرَّف⁽²⁾. وفي هذا التنكير والإبهام أيضًا ما فيه من التَّهْوِيل والتَّشْنِيع لما اقترفوه في حقِّ أخيه⁽³⁾. فالتنكير في ﴿أَمْرًا﴾ لبيان شدَّته، وبلوغ أقصى قوته⁽⁴⁾.

دلالة الفاء، وإعراب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾:

الفاء للسببية فقولهُ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فتسبَّب عن ذلك الفادح العظيم أنَّه يكون صبر ﴿جَمِيلٌ﴾ منِّي، وهو الذي لا شكوى معه للخلق⁽⁵⁾.

أو يكون المعنى على إضمار (أَمَّا)؛ أي: أمَّا أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنِّي أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من السُّخْط والتَّشْكِي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوَّتي⁽⁶⁾. أو على التفرُّيع على عِظَم ما جاؤوا به في ﴿أَمْرًا﴾⁽⁷⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238 - 239.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.

(3) طنطاوي، الوسيط: 7/330.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/32.

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 395.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/239.

والرَّفَع أَبْلَغ وَأَحْسَن، وَإِنَّمَا يُخْتَار النَّصَب فِي الْأَمْرِ خَاصَّةً⁽¹⁾؛ لِأَنَّهُ عَلَى الثَّانِي يَكُون مَجَرَّدَ دَعْوَى⁽²⁾، وَالْجُمْلَةُ اسْمِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالِدَّوَامِ؛ أَي: صَبْرِي صَبْرٌ دَائِمٌ وَمُسْتَمِرٌّ⁽³⁾.

نكتة وصف الصبر بالجمال ومعناه:

وصف الصَّبر بالجميل في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾⁽⁴⁾ يحتمل أن يكون وصفاً كاشفاً؛ إِذ الصَّبر كُلُّهُ حَسَنٌ دُونَ الْجَزَعِ. كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ كَنَيْفِ النَّبْهَانِيِّ:

تَصَبَّرَ فَإِنَّ الصَّبرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ *** وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ مُعَوَّلٌ⁽⁴⁾
أَي: أَجْمَلُ مِنَ الْجَزَعِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ وَصْفاً مَخْصَصاً. وَقَدْ فَسَّرَ الصَّبرَ الْجَمِيلَ بِالَّذِي لَا يَخَالِطُهُ جَزَعٌ. وَالْجَمَالُ: حُسْنُ الشَّيْءِ فِي صِفَاتِ مُحَاسِنِ صِنْفِهِ؛ فَجَمَالُ الصَّبرِ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ، وَهُوَ أَلَّا يَقَارَنَهُ شَيْءٌ يَقِلُّ خِصَائِصَ مَا هِيَئَتِهِ⁽⁵⁾.

دلالة الواو في: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾:

الواو هنا عاطفة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ عطفٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ فَتَكُونُ مُحْتَمِلَةً لِلْمَعْنِيَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ مِنْ إِنْشَاءِ الْإِسْتِعَانَةِ أَوْ الْإِخْبَارِ بِحُصُولِ اسْتِعَانَتِهِ بِاللَّهِ عَلَى تَحْمُلِ الصَّبرِ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ أَرَادَ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ لِيُوسِفَ ﴿﴿﴾ عَلَى الْخِلَاصِ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ⁽⁶⁾.

فَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ بَيَانٌ عَمَّا يُوجِبُهُ التَّقْيُّ مِنَ الصَّبرِ الْجَمِيلِ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ، وَالْإِسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ ﴿﴿﴾ عِنْدَمَا

الصَّبرَ الْجَمِيلَ لَا
شَكْوَى مَعَهُ إِلَى
خَلْقِ اللَّهِ

إِنَّمَا يُطَلَّبُ
الْعَوْنُ مِنَ اللَّهِ

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 5/3521.

(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 2/379.

(3) الهلال، الثري الجامع: 5/324.

(4) بهاء الدين البغدادي، التذكرة الحمدونية: 4/301، والهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: 2/270.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/239 - 240.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/240.

يعرض من الأمور الهائلة⁽¹⁾، والتَّسليم لأمر الله تعالى والتَّوكل عليه، والتَّقدير: على احتمال ما تصفون⁽²⁾. وهو إنشاءٌ من يعقوب ﷺ للاستعانة المستمرة⁽³⁾؛ فالجملة دُعاء، لا إخبارٌ من يعقوب ﷺ⁽⁴⁾.

بلاغة تصدير الجملة باسم الجلالة ﴿وَاللَّهُ﴾:

التَّلبُّس بالصَّبَرِ
لا يكون إلا
بمَعونة الله
تعالى

تصدير الجملة بلفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ﴾ للاهتمام بذكر المعين أولاً؛ فهو المحيط علماً وقدرة⁽⁵⁾. وفيه إشارة إلى أنَّ مقتضى العبودية هو الخضوع والتَّسليم لله ربِّ العالمين فيما قضى وقدر، وأنَّه إذا قضى الله أمراً من البلاء فالواجب على العبد أن يصبر ويحتسب، راضياً عن ربِّه ﷻ، وأن يطلب العون من الله تعالى على هذا الصَّبَر، لذلك قال يعقوب ﷺ: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ معبراً بعنوان الألوهية الذي يتضمَّن العلوَّ والقهر والحكمة والعلم، وليذكر نفسه بواجب العبودية.

نكتة الإخبار عن اسم الجلالة بـ ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾:

لا حول ولا قوَّة
للعبد إلا بالله،
ولا قبيل له
بمقارعة النَّوازل
إلا بإعانة مولاہ

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾: أي: المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصَّبَر على الرِّزية⁽⁶⁾. وفي الإخبار بالمعرفة قَصْرٌ؛ أي لا يستعان إلا هو وحده في الصَّبَر على ما يصفون من قول. ولم يقل: على ما وقع، بل قال: على ما وصفتم؛ للإشعار بأنَّ ما وصفوا غير ما وقع⁽⁷⁾.

ومعنى استعانتہ ﷻ بالله تعالى على كذبهم: طلبه منه سبحانه إظهار كونه كذباً بسلامة يوسف ﷺ والاجتماع معه، فيكون ذكر

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/51.

(2) ابن عطية، للحرر الوجيز: 3/228.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.

(4) القنوجي، فتح البيان: 6/302.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/32.

(6) أبو حنَّان، البحر المحيط: 6/251، والبقاعي، نظم الدرر: 10/32.

(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.

الاستعانة هنا نظير قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: 83] بعد قوله فيما بعد: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾⁽¹⁾.

والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى؛ لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوّة، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحضر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]⁽²⁾.

البلاغة في التعبير بـ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾:

عبر البيان القراني عما أصاب يوسف ﷺ من إخوته بـ: ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تكذبون⁽³⁾. والوصف ذكر الشيء بنعته. وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك⁽⁴⁾. ولم يقل: (على ما وقع)، بل قال: على ما وصفتم؛ للإحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع⁽⁵⁾.

فقوله: ﴿تَصِفُونَ﴾؛ يعني: أنكم لا تقولون الحقيقة، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع⁽⁶⁾. فالتعبير عما أصاب يوسف ﷺ بـ: ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ في غاية البلاغة لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف ﷺ ضرراً، فلما لم يتعين عنده المصاب

لكلّ نبأ مستقرّ،
وكلّ آت قريب،
وكلّ همّ إلى
فرج

(1) الألوسي، روح المعاني: 6/393.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/432.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/42.

(4) الألوسي، روح المعاني: 6/393.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.

(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6893.

أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً؛ لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه، ويعقوب عليه يريد أن ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذباً. فهو قريب من قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: 180) (1).

دلالة استخدام ﴿عَلَى﴾:

لا يفتأ الكاذب
يذيع أراجيفه

استعمال ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ يدل على تمام القدرة لما في ﴿عَلَى﴾ من دلالة على الاستعلاء والاستيلاء والفوقية، فعون الله يكون فوق كلِّ بلاء، وكلُّ مصيبة تصغر إذا قوبلت بعونه سبحانه.

دلالة استخدام صيغة المضارع ﴿تَصِفُونَ﴾:

تدل صيغة المضارع على الحال والاستقبال، كما تدل على التجدد والاستمرار، فكأنهم ما فتئوا يعتذرون ويبررون ويكذبون ويدعون، ذلك أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون مخادعون! وفي استعمال المضارع بعد قوله: ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ دلالة على أنه ثابت على استمداد العون من الله بدعائه إياه كلما ابتلي بأكاذبيهم الفظيعة حول مقتل أخيهم.

دلالة تعريف طرفي الإسناد ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾:

في تعريف طرفي الإسناد قصر لطلب العون من الله وحده، فهو وحده القادر على عونه في هذا البلاء العظيم. وفيه تأكيد للمعنى.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالاتها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أوسع شمولاً من الذي (2)، وتحتل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأوليين مبنية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/240.

(2) الهلال، الثري الجامع: 5/324.

على السُّكون في محلٍّ جرٍّ بـ ﴿عَلَى﴾، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾
أو صفتها، والعائد أو الرّابط محذوف، والجارُّ والمجرور متعلقان بـ
﴿الْمُسْتَعَانَ﴾ وتقدير الكلام: المستعان على الذي، أو شيء تصفونه.
وعلى اعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية تؤوّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلٍّ
جرٍّ بـ ﴿عَلَى﴾، والتقدير: المستعان على وصفكم؛ أي: على ادّعاءكم⁽¹⁾.

❖ الفُروقُ المُعْجِيةُ:

التسويل والتطويع:

التسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه
بصورة الحسن⁽²⁾، والتطويع: التسهيل⁽³⁾، وهو أشدُّ من التسويل،
ويوضّح ذلك أنّ الحديد يحتاج إلى تطويع أي: يحتاج إلى جهد حتى
يُطوَّع، وتطويع الوحش وترويضه يحتاج إلى وقت حتى يُطيع مَنْ يريد
أن يطوِّعَه، وكذلك تطويع الطيور؛ فكلُّ ذلك يحتاج إلى جهد وبذل
لتحقيق التطويع، أمّا التسويل فلا يحتاج إلى مثل ذلك الجهد⁽⁴⁾.

قال الله ﷻ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [الأنعام: 30]؛ ودلّ
(طَوَّعَ) على حدوث تردّد في نفس قابيل ومغالبة بين دافع الحسد
ودافع الخشية⁽⁵⁾، فالقتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس
فردّته هذه النفس اللّجوجة الأمّارة بالسّوء طائعا منقادا حتى واقعه
صاحبُ هذه النفس؛ فهذا التطويع ليس كالتسويل والتّزيين الذي
يُفَعّل فيه الشيء بسهولة وارتياح⁽⁶⁾.

وأصل التسويل يدلُّ على الاسترخاء، ولما اتّهم إخوة يوسف أباهم

التطويع أشدُّ
من التسويل

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/559.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات: (سول).

(3) الأزهري، التهذيب، الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (طوع).

(4) السامرائي، لمسات بيانية، محاضرات، ص: 1046.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/172.

(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/179، 180، والسامرائي، لمسات بيانية، محاضرات، ص: 1046.

حين قالوا: ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8]؛ فعلوا ما ظنوه عدلاً لا ضللاً، فكأنَّ فعلهم كان باسترخاء وارتياح لذلك، فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾. وكذلك في المرة الأخرى هم الذين حكموا مسبقاً بشأن صواع الملك، قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهَوَ جَزَاءُ﴾ [يوسف: 75]، فهذا كان عدلاً عندهم؛ فقال أبوهم مرة ثانية: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: 83]؛ أي: صوّرت له لكم عدلاً⁽¹⁾.

الصَّبْرُ وَالتَّصَبُّرُ، وَالْإِصْطِبَارُ وَالْمُصَابَرَةُ:

التصَبُّرُ تمرُّنٌ
على الصَّبْرِ،
والإِصْطِبَارُ أبلغُ
من التصَبُّرِ،
والمُصَابَرَةُ الصَّبْرُ
في وجه الصابر

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإنَّ حَبَسَ نفسه وَمَنَعَهَا عن إجابة داعي ما لا يحسن؛ إن كان خُلُقاً وَمَلَكَهَ سمي صبراً. وإن كان بتكَلُّفٍ وَتَمَرُّنٍ وَتَجَرُّعٍ لمرارته سُمِّيَ تصَبُّراً، كما يدلُّ عليه هذا البناء لغة، فإنَّه موضوع للتكَلُّفِ؛ كالتحلُّم، والتشجُّع، والتكُّرم، والتحمُّل ونحوها. وإذا تكَلَّفَ العبد واستدعاه صار سَجِيَّةً له؛ كما في الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»⁽²⁾.

وأما الإِصْطِبَارُ فهو أبلغ من التصَبُّر؛ فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الإِصْطِبَارِ، كما أن التَّكْسِبَ مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصَبُّرُ يتكرر حتى يصير إِصْطِبَاراً⁽³⁾.

وأما المُصَابَرَةُ فهي مقاومة الخصم في ميدان الصَّبْرِ؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاة والمُضَارَبَةِ، أو هي الصبر في وجه الصابر، وهذا أَشَدُّ الصبر ثباتاً في النفس وأقربه إلى

(1) جبل، العجم الاشتقاقي المؤصل: (سول).

(2) ابن القَيِّم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: 1/31، والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1469)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1053)، وغيرهما.

(3) ابن القَيِّم، عدة الصابرين: 1/33.

التَّلْزَل، ذلك أَنَّ الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قِرْن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إِنَّ هذا المصابِر إن لم يَثْبِت على صبره حتَّى يَمَلَّ قِرْنُهُ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَنِي من صبره شيئاً، لأنَّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: 200]؛ فأمرهم بالصَّبر وهو حال الصَّابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في التَّصَبُّر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على التَّصَبُّر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابِر، وقد يصابِر ولا يَربِط، وقد يصبر ويصابِر ويرابط من غير تعَبُّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أَنَّ مَلَائِكَةَ ذَلِكَ كُلِّهِمُ الْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ الْفَلَاحَ مَوْقُوفٌ عَلَيْهَا فَقَالَ ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]⁽²⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/208.

(2) ابن القَيِّم، عدَّة الصابرين: 1/33، 34.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 22، 812 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-19-7

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 22: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-19-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»